تأملات في قوله تعالى ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقا﴾ الكهف ١٦

- لقد خطط الفتية فأحكموا التخطيط – وهو توفيق من الله – حيث إنهم ذكروا بنود التخطيط الفعال حتى يكون واضحا ويؤتي أكله :
  - فحددوا الوقت (إذ اعتزلتموهم) . (إذ) هنا للظرفية الزمانية .
  - حددوا الفعل والأداء السابق (اعتزلتموهم .. الاعتزال العقدي) / وهو بمثابة تقييم للأداء السابق ومراجعة له . ليبنوا عليه الفعل الآتي .
  - وحددوا الخطوة التالية / الأداء التالي / الفعالية المطلوبة . (فأووا .. اعتزال جسماني مادي) . مع سرعة الإنجاز التي توحيها (الفاء) في الفعل (فأووا) .
  - حددوا المكان (الكهف) . وهو الملتقى والموعد المترقب للمخطط الآتي .
  - حددوا المخرج النهائي المتوقع (النتاج ، الهدف المنشود) . (ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا) . والأصل في النتاجات أو الأهداف أن تكون مدروسة بشكل جيد حتى توصل إلى البغية ، وهذا ما حصل هنا فقد كانوا جازمين من النتيجة بتأييد من الله وفتح منه . يقول البقاعي – رحمه الله – " وهَذا الجَزْمُ مِن آثارِ الرَّبْطِ عَلى قُلُوبِهِمْ بِما عَلِمُوا مِن قُدْرَتِهِ عَلى كُلِّ شَيْءٍ، وحِمايَتِهِ مَن لاذَ بِهِ ولَجَأ إلَيْهِ وعَبَدَهُ وتَوَكَّلَ عَلَيْهِ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ فَفَعَلَ اللَّهُ ما رَجَوْهُ فِيهِ، فَجَعَلَ لَهم أحْسَنَ مِرْفَقٍ بِأنْ أنامَهم ثُمَّ أقامَهم بَعْدَ [مُضِيِّ-] قُرُونٍ ومُرُورِ دُهُورٍ، وهَدى بِهِمْ ذَلِكَ الجِيلَ الَّذِي أقامَهم فِيهِ " تفسير نظم الدرر .
- من الأشياء الملفتة في سياق السورة والآية ها هنا ذكر المكان (فأووا الكهف) الذي ضم الفتية وجمعهم ، وتكرار ذكره في القصة عموما (انظروا كم مرة ذكر الكهف) ، وكأنه يشير – والله أعلم – إلى وجوب وجود حاضنة خصبة جامعة مهيأة للفكرة أوالمعتقد ، وبيئة مكانية نظيفة طاهرة تساهم وتساعد في الحفاظ على معتنقي الفكرة وحامليها ، وتجمعهم وتلم شملهم وشعثهم ، لا سيما مع ضعف الفكرة (أولها) وقلة الأسباب (المادية) المؤيدة والداعمة لها . بل حتى أصبح هناك علاقة متينة وصحبة بينهم وبين ذلك المكان مع خوائه من الحياة التي عرفوها والرفاهية التي عاشوها ، (أصحاب الكهف) . فتأملوا .
- برز كثيرا ذكر الصحبة والصاحبية والملازمة ، في إشارة ملفتة لأهميتها في شتى الأعمال الدينية والدنيوية ، وقيمتها في الإنجاز والأداء ، وتأثيرها على المرء والجماعة وأثرها في السلوك البشري ..
  - فمن صحبة الفتية وتلازمهم في كل مجريات ومشاهد القصة واتحاد مواقفهم (ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى (13) وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا)

- إلى صحبة ذي الجنتين (وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا (34) . (قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا (37))
- إلى صحبة الفتى لموسى عليه السلام (وإن لم ينص عليها صراحة) ، حيث لازمة في رحلته العلمية وسياحته في الأرض من أجل المعرفة وذاقا معا ما ذاقا من تعب السفر ونصبه: (وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا (60) فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا (61) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا) .
- إلى صحبة العلم والملازمة بين موسى والخضر عليهما السلام في رحلة المعرفة (فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا (65) قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا (66))
- بل حتى التنويه إلى صحبة مع غير البشر :كالكهف . (أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا (9) . والكلب (وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ) (سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا (22))
وكأنه سبحانه رفع من شأن وشأو هذه الأشياء من غير البشر لمجرد ملازمتها أهل الإيمان !

- إن مما يعين الفكرة الناشئة على قوتها وثباتها وتأصلها وانتشارها إضافة لتوفير البيئة والمكان والتخطيط الفعال ، العمل على إيجاد فريق عمل قوي متلائم منسجم ، يتكلم بنفس اللغة ويشدو بذات اللحن ، مع وضوح الرؤية والرسالة لديه.. قال تعالى (إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى (13) وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا) (إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا) . إضافة لما توحيه كلمة فتية (فتوة وقوة و اندفاع ..) فتدبروا ذلك .
- كانت الرحمة في هذه القصة خصوصا وبقية قصص سورة الكهف حاضرة بشكل ملفت وكانت محورا أساسيا تدور في فلكه الأعمال والأهداف والمصالح والمنافع والأوصاف .. وهي بمثابة القلب النابض والنواة التي تشرق على صاحبها كل الخيرات الدينية والدنيوية والفتوحات الربانية . (يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا) 16 (إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) 10. (فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا (65) .. فإذا شملك الله سبحانه برحمته فقد حزت خيري الدنيا والآخرة فليس ثمة نعمة بعدها . فماذا تخاف بعد ذلك ؟ وعلى ماذا تقلق وتأسى ؟ وماذا ترجو بعدها ؟ .

- اهتمام قصة أصحاب الكهف (والسورة عموما) بتهيئة الظروف والملابسات المناسبة للوضع القائم (لفتة هامة في التخطيط أيضا) ، وهي هنا من نتاج الرحمة التي ذكرناها ، ففي قصة الكهف وردت (وَيُهَيِّئۡ ، وَهَيِّئۡ) ، فكان من نتاجها ما يلي :

- (فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا)
- (وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ)
- (وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ)

والجامع بين هذه الثلاث خرق العادة (الكرامة) التي حبا الله بها فتية الكهف .

بينما نرى ثلاثية أخرى من التهيئة والتيسير والتسهيل أجراها الله على يدي الخضر عليه السلام في قصته مع موسى عليه السلام ، دبر الله فيها لأجل عباده الخير رحمة من لدنه :

- فخرق سفينة المساكين لتنجو من ظلم الملك الغاصب المتسلط .
- وقتل الغلام لئلا يرهق والديه المؤمنين الصالحين طغيانا وكفرا .
- وأقام جدار بيت ، ملك ليتيمين حتى يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما ، فأهل القرية يغلب عليهم طابع البخل وحب المال .

والجامع بين هذه الثلاث فعل مستغرب (ظاهرا) وليس خرق عادة .

وثلاثية أخيرة من ذي القرنين تقوم على أسباب وسنن (وآتيناه من كل شيء سببا) ، وهي :

- إقامة العدل وسيادة قانون السماء وتهيئة الساحة للدين بعيدا عن ظلم الظالمين وتسلط الفاسقين (قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا (87) وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا (88))
- تهيئة ظروف التكيف مع المكان والبيئة والمناخ ، (حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا (90) كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا (91)) .
- إقامة سد يحول دون إفساد يأجوج ومأجوج في الأرض ، حماية للمساكين والأبرياء ، فوظف ذو القرنين كل ما لديه من علم وخبرة ومعرفة بالسنن ، وطوع أسباب وقوانين أرضية لخدمة هذا المشروع .

وهذه الثلاثية قائمة على أسباب وقوانين أرضية وطبيعية وكونية .

هذا ما سمح به الفكر العليل .. في تدبر آي التنزيل .. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

كتبه راجع عفو ربه : د إيهاب برهم